كيف أكون كاتبا أديبا

إن جميع الكتاب والأدباء في أسمى مكانة وأعظم منزلة لما اتصفوا به من كامل المروءة وسعة الأدب. فهم الذين عليهم يقوم الإصلاح وبهم تستقيم الأمور. وصناعة الأدب ليست سهلة المأخذ ولا سائغة المنال فيتعلمها في أشد حالات العوز. وأعني خلال الفاقة إلى معين جهد لا ينضب وغور كد لا يأتي عليه التعب فأول ركن يعتمد عليه الرغبة في التبرز والسباق. فيها يحطم قيود الملال، ويهتك ستر الكلال. ولا يرى في الطعام ما يراه في تغذيه بكلام الأدباء؛ تحدوه الرغبة ويدفعه الشوق إلى أن يحتفظ في ذاكرته بأعظم ما يمكن من جمل، حتى إذا شب وترعرع في بحبوحة فنهم طوحت به الرغبة إلى أن ينازعهم الشرف ويشاركهم السبق. «وربما يزحم في عملهم بما يثقل وعصره الظريف حين يفتح لنفسه خطة جديدة، يخالف فيها غيره من السلف والخلف. وإذا ما استمر في طريقه لم يلبث أن يصير علما في الكتابة ومن لم يتلك إلا النادر الذي استمرأ طريقها الوعر. والمستعذب المشقة في سبيل تحقيق غايته فيأخذ نفسه بالمثابرة والمسايرة، ومن عكف على استظهار الكثير من الألفاظ كألفاظ القرآن ودواوين الشعراء والكتاب الفحول؛ درب حينئذ بصوغ الدر النظيم. فالرغبة هي المهاد والاستظهار هو العماد. فإذا سلك سبيل الغاية وحقق حلم الأمل، وجب أن يتبصر فيما هو مقدم عليه ومتأهب له. إذ ما سبق، ليس إلا وازعا للاحتراز من الخطأ والاعتصام من زلة الجهل. والتطلع بغريب الأسلوب فإن أحسنه سنده وأقوى عمده لإجادة هذه الصنعة تنمية الثروة اللفظية الفصيحة، واستدرار أرواح معانيها الصريحة والتغلب على شرح المطلوب في عدة وجوه.

وكالا يفوت الكاتب أن يعيد إنشاءه مرارا حتى إذا وجد دخيلا أخرجه أو غريبا شذبه أو ركيكا حسنه؛ إذ الإنشاء صريحة لا تحتاج إلى تأويل مزيد أو قريب أو تعقيد في فهم معنى.

وإذا أخذ المرء نفسه بالمران والتدريب والتحسين والتهذيب، ارتقى إلى أوج الكمال وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ثم يرتفع إلى أن يكسوه ضروبا مختلفة من العبارات الطلية فتحمل ذاكرته من لقاح المعاني ما يولد معانيا غير تلك المعاني. فإذا صاغ فتن وإذا خطب أسر وإذا تعوه ملك القلوب. وانحدرت الدرر البهية، والألفاظ المعسولة، والمعاني الجميلة التي تمزق بين السامع والإعجاب كل ستر وحجاب؛ فتملك عليه نفسه حتى لا يكاد يسمع ويبصر إلا ما جرى عليه صفحات قلب الكاتب وما خطه بنانه.

طه مرعي
مدرس بالقليوبية